التطور والإبداع في فلسفة الحياة

هنري برغسون نموذجا

ب. تفاحي فتيحة/ جامعة سعيدة

ملخص المقال:

تعد الفلسفة الروحية لهنري برغسون من بين الفلسفات التي اقتدرت على القطيعة بكل جرأة، مع النسق المادي الذي كان سائدا. وأقامت الحياة على الحركة والديمومة لقوله الشهير:" هناك في الصيرورة أكثر مما هناك في الوجود". وعلى هذا الأساس مثّل جوهر الحقيقة التي دلنا إليها بسيكولوجية باطنية، هي "الروح" خاصيتها الاستمرار والديمومة والحيوية، والنشاط، يعتبرها الأصل الذي نشأ منه الوجود المادي ووسيلتها لإدراكها الحدس. بعيدا عن التصورات القبلية والاستنباطات المنطقية، فرفع بذلك من شأن الحدس فوق العقل، كما حملت فلسفته في مضمونها جملة من الثنائيات، العقل والحدس، الزمان الفيزيائي والزمان النفسي، الحرية والحتمية، الكمي والكيفي، دين ساكن ودين مفتوح وغيرها وأمام هذه المنظومة من الثنائيات يعمل برغسون على تصنيفها حسب فاعليتها، بعضها وثيق الصلة بالروح، والبعض الأخر مرتبط بالمادة.

The article summary

The spiritual philosophy of Henri Bergson is among philosophies that have managed to break boldly , with the physical pattern that prevailed . And it sets up life on the movement and permanence for the famoussaying : "There is too much happening in there to exist ." On this basis, such as the essence of the truth that has shown us the psychology of it underground , is the " soul",its caracteristic is continuity and permanence and vitality , The activity, which grew originally considered him the physical presence and its device for recognizing intuition. Away from the perceptions of tribal and logical deduction , he lifted up so would intuition over reason , and carried his philosophy in its content a number of diodes, reason and intuition , physicalTime and psychological time freedom and determinism , quantitative and qualitative , religion resident and religion open and others in front of this system of diodes Bergson works to classified them according to their effectiveness , some of which is closely related to the spirit , while others are linked to pattern .

مقدمة

إذا كانت الفلسفة التجريبية تهتم بالمادة، وكانت الفلسفة المثالية تبحث في مفهوم المثال، فإن فلسفة الحياة تشتغل على تفسير الواقع عن طريق مفهوم الحياة. وقد دوى صداها أمام طغيان التفسير المادي الذي لم يقتصر تأثيره على الظواهر الطبيعية، بل امتد ليشمل الظواهر الإنسانية، أمام هذا الواقع كان لزاما إعادة الاعتبار للكيان الروحي للإنسان، ومن أهم الفلاسفة الذين تبنوا هذا الاتجاه "مين دي بيران" كواضع للأسس الأولى للمذهب، وأخرون أمثال "رافسون" "لاشليه" "بوترو" وغيرهم ولكن أبرزهم برغسون*الذي دافع عن المذهب بكل قوة، حيثيعد أهم ممثلي فلسفة الحياة.

كان طالبا ناجحا في دراسته، وبعد إنهاء المراحل الأولى من الدراسة المراحل الاولى اتجه إلى تخصص الرياضيات والعلوم الطبيعية، وسرعان ما تحول اهتمامه إلى الفلسفة لما كان يتميز به من قدرة فائقة على التحليل والملاحظة، لعل تكوينه العلمي المتنوع ساعده على الوقوف وجها لوجه ضد الموجة المادية التي طغت على فكر القرن التاسع عشر.تجلت تأملات برغسون الفلسفية في كتبه الأربعة: "رسالة في المعطيات المباشرة للوعي" "المادة والذاكرة"، "التطور المبدع"، "منبعا الأخلاق والدين"، قدم فيها أفكاره بلغة سلسة، أقل ما يمكن أن يقال عنه أنه الفيلسوفالموهوب، والعالم المتفائل، والفنان المرهف والمبدع، فهذه المثابرة الفكرية أهلّته لنيل جائزة نوبل عام 1927م .

إضافة إلى دور الرعاية الأسرية التي تلقاها من والدته، والتي كان لها أثرها في تكوين شخصيته، وصقل فكره، ما دفع بعض المؤرخين إلى القول، أن هذه التجربة الحميمية خلّفت لديه أثرا نفسيا ولّد بداخله، حبا للحياة، وميلا نحو النشاط، وعاطفة مفعمة بالحب انعكست على مشروعه الفلسفي.
مما لا شك فيه أن فهم أي فلسفة، لا يتحقق إلا من خلال وضعها ضمن سياق نظامها المعرفي، فقد عاصر برغسون مرحلة طغت فيها النزعة الوضعية والمادية،بدأ حياته الفكرية ماديا متبنيا مذهب سبنسر. ورافضا لفلسفة كانط لكن سرعان ما طلّق التوجه المادي، ونبذ كل نزوع ميكانيكي، وأحدث انقلاب على المادية،وأسس لفكره هويّة جديدة ومستقّلة، فامتاز مشروعه الفكري بالتنوع واتجه نحو تفسير الواقع تفسيرا حياتيامتجاوزا بذلك الأنساق الفلسفية التي عاصرها، وأشاد بالفلسفة التي ترفض النسقية، واعتبرها فلسفة حقة، لأنها تنتقل من التجارب الحية إلى تعميقها"إن برغسون هو الفيلسوف الذي أعاد إدخال الحياة الروحية بكل زخمها إلى العالم ولكن بالاعتماد على حوار جدّي وبناء مع معطيات العلم المعاصر، بالاعتماد كذلك على التجربة

---

* – ولد هنري برغسون عام 1859م بباريس، حصل على شهادة دكتوراه عن أطروحته الموسومة "بحث في المعطيات المباشرة للوعي عام 1889م، تقلد مناصب علمية وإدارية متنوعة، حصل على جائزة نوبل للآداب عام 1928م، توفي سنة 1941م.

الموضوعية"[1]وقف برغسون ضد الاتجاه المادي للتعبير عن الطبيعة الحيوية المغايرة والمتميزة عن للمادة الجامدة، متحديا التفسير المادي المحض للحياة، لعل هذا الأمر تبرره المحاور الأساسية في فلسفته وهي الحرية ، الروح والإله.

فما الجديد الذي حملته فلسفة الحياة البرغسونيةمعها؟وهل نجح برغسون في حل مشكلة الحياةالتي أرّقت الإنسان في ظل طغيان التيار المادي؟ وإلى أي حد تمكن الإنسان من افتكاك شعوره بكيانه الروحي من خلال حدّس الديمومة* الخلّاقة؟

فلسفة الحياة عند برغسون

أحدث برغسون قطيعة مع الفكر الفلسفي الذي ساد أوروبا حديثا، بنبذه التصور الميكانيكي والمثالي. وأراد رفع اللبس الذي مسّ جملة المفاهيم المتعلقة بطبيعة الحياة ودلالاتها كالديمومة والامتداد والكيف، والتتابع والتزامن وغيرها من المفاهيم. فإذا كان ديكارت قد انطلق من كوجيتو الفكر، فإن برغسون ينطلق من كوجيتو الوعي إيمانا منه بأنه كوجيتو الديمومة الخالصة المتحررة من حتمية الزمان الفيزيائي، هو الأصل، من هنا أسّس الحياة على حدس الديمومة كتصور ديناميكي، وجوهر الحياة ومصدر إبداعها. "أصالة أفكاره حول فلسفة الحياة تتجلى في فكرة السورة الحيوية L'élan vital مفاده أن الحياة منذ نشأتها هي استمرار لسورة واحدة توزعت بين خطوط مختلفة للتطور. لقد نما شيء، وتطور سلسلة من الإضافات التي كانت ألوانا من الخلق، وهذا النمو نفسه هو الذي يعد نقطة معلومة دون أن تصير غير متوافقة فيما بينها"[2]فكل نوع من الأنواع الحية صدر عن (الدفعة الحيوية) لذلك لا يمكن النظر إلى التطور على أنه تركيب لعناصر كانت مفككة في بدايتها، وإنما النظر إلية على أنه تطور خلاق وديمومة واستمرار.

وبتعبير صريح يقول برغسون "نحن نرى أن الوجود بالنسبة إلى كل كائن حي هو التغير أو التغير في سبيل النضج، وأن النضج هو إبداع الإنسان نفسه بنفسه إبداعا غير محدود"[3] ويترجم الحياة إلى ديمومة سيكولوجية في قوله: " شخصيتنا تنمو وتكبر وتنضج دون انقطاع كل لحظة من لحظاتها شيء جديد ينظم إلى ما كان موجودا من قبل: وإذا ذهبنا إلى أبعد ذلك قلنا: ليس هذا الجديد جديدا فحسب، وإنما هو شيء لا يمكن التنبؤ به"[4] ما دامت

---

[1]–هنري برغسون، بحث في المعطيات المباشرة للوعي، تر: الحسين الزاوي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2009، ط1، ص 11.

*– يضع برغسون الديمومة Durée مقابل الزمن، إذ أن الأولى سمة التعاقب بالذات، كما هو محسوس مباشرة في حياة العقل أو الروح: "ديمومة محضة، ديمومة محسوسة، ديمومة معاشه حقا" والثاني هو الفكرة الرياضية التي نكونها عن الزمان لكي نعقل ونتواصل مع أقراننا من خلال ترجمة الزمن إلى صور مكانية. أنظر موسوعة لالاند ،ج 1، ص 307.

[2]– عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة ج1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1984، ط1،ص 336.

[3]–هنري برغسون، التطور المبدع، تر : جميل صليبا، اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع، بيروت، 1981، ص 13.

[4]–المصدر نفسه، ص 11.

الظروف لا تتكرر بعينها، فليس منالضروري أن نتوقع المستقبل على نحو معين، ما دام كل لحظة من لحظات حياتنا تحمل معها جديدا، لأن في التطور دائما إبداعا جديدا.

وإذا توقفت الحياة النفسية عن التغير، توقفت بالضرورة ديمومتها عن الاتصال " لأن الذات التي لا تتغير لا تتصف بالديمومة، وكذلك الحادثة النفسية التي تبقى على حالها ولا يستبدل بها غيرها من الحالات اللاحقة فهي لا تدوم أيضا"[5]ففي كل آن هناك إبداع جديد، وفي هذا السياق يميز برغسون بين نوعين من الزمان: الأول مجسد في الديمومة الحقيقية المشخصة في الزمان النفسي، لذلك علينا التمييز بين الزمان الحي الذي نعيشه كتجربة فردية حية ندركها بالحدس، والثاني الذي تتحدث عنه النظريات الفيزيائية لا يعد زمنا بالمعنى الحقيقي.

لعل هذا ما دفعه إلى الاستمرار في موجة الانتقاد حيث مسّت علم النفس الترابطي في قوله:" فعلم النفس المادي الذي يزعم تطبيق القياس على الظواهر النفسية وجعلها "علمية" يخلط خلطا شنيعا بين الإحساس الذي هو فعل غير منقسم وبين المؤثر الفيزيقي وزيادته ونقصانه، والواقع أن لا نسبة البتة بين الحدين، فالحياة النفسية كيف بحث مباين للكم، على حين أن المادة متجانسةفي جميع أجزائها، موجودة بجميع أجزائها معا، باقية هي هي، حاضرها ومستقبلها كماضيها بغير تغيير"[6] أخطأ علماء النفس في نظر برغسون عندما وصفوا الظواهر النفسية بصفات مادية كالشدة، والطول والعمق وغيرها من الصفات اللصيقة بالظواهر الجسمية، وعلى أساس هذه التفرقة يقر باستقلالية الحياة النفسية، عن الجسم المادي، ويعتبر الروح جوهر الوجود الإنساني، والأصل الذي صدر عن الوجود المادي. فالفرد يتمتع بالحرية داخل جوهره الروحي، وفي ذات الحين نراه مقيد بفعل الجسم المادي الذي يعد ظاهرة عرضية، وهذا لا يعني أن برغسون يفصل بين النفس والجسم، بل بالعكس أعاب الفلسفة المادية التي ميزت بينهما يقول في كتابه " المادة والذاكرة" "إني أشاهد كيف أن الصور الخارجية متصلة بهذه الصورة التي أسميها جسمي، إنها تبعث فيه الحركة، كما أنه يؤثرفي هذه الصور الخارجية"[7]

بالموازاة مع ذلك يربط برغسون نظريته في الحياة بنظرية المعرفة، فهما بالنسبة إليه لا تنفصلان، على أساس أن كل نظرية للحياة لا بد أن تعمل على نقد المعرفة، وإلا اضطرت إلى قبول الأفكار والتصورات الجاهزة التي يحملها العقل دون تغييرها.

---

[5]- المصدر نفسه، ص 9

[6]- يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، دار المعارف، القاهرة، 1986، ط 5، ص 439.

[7]- Henri Bergson, Matiére et Mémoire, P. U.F, Paris, 1968, P 14.

الحياة والتطور

عمل الفلاسفة على تفسير الحياة بصورتين، الصورة الأولى قدمها المذهب الميكانيكي، والثانية المذهب الغائي، يعتبرهما برغسون على خطأ "يرى المذهب الأول الميكانيكي أن الكائن العضوي، ما هو إلا ألة تحددها في المحل الأول قوانين عقلية، بينما يرى المذهب الثاني، الغائي أن هناك خطة محددة يسير على هداها العالم، وكلا المذهبين يغالي، على نحو أو أخر، في أهمية العقل أو الذكاء، هذا بينما يرى ، وبرغسون أن العقل مصنوع للعمل لا لمعرفة الحياة لذلك ينبغي على الفلسفة أن تتعدى الميكانيكية والغائية كليهما والميكانيكية على الأخص، لأنها تنكر أوسع المعطيات"[8]فهذه النزعة الميكانيكية تلغي وجود الحرية في الطبيعة، وتعتبر الوجود العضوي محكوم بألية تخضع لقوانين عقلية. وقد ورد في كتابه البحث في المعطيات المباشرة للوعي التمييز بين نسقين متضادين هما الألية والدينامية. وهذه الأخيرة مرتبطة بالوعي، وعلى هذا الأساس يفسر برغسون التطور من خلال الوعي في قوله: "سأكتفي بأن أقول أني أرى في التطور الكامل في الحياة فوق كوكبنا، رحلة تقوم بها المادة عبر الوعي الخلاق، من أجل تحرير شيء ما يبقى محبوسا عند الحيوان، ولا يتحرر نهائيا إلا عند الإنسان ويتم هذا التحرير بفضل الابتكاروالاختراع"[9]

" يرى برغسون أن الحياة في سيرها لا ترسم مسارا وحيدا يمكن م مقارنته بمسار قذيفة مملوءة أطلقت من مدفع، بل نحن هنا بالأحرى بإزاء قنبلة obus انفجرت فورا على هيئة شظايا يقدر لها أن تنفجر أيضا وهكذا باستمرار طوال وقت طويل جدا"[10] وانقسام الحياة إلى أفراد وأنواع مرده إلى سلسلتين من الأسباب: الأولى تتجلى في المقاومة التي تتعرض لها ومن الجامدة المادة. والثانية القوة المتفجرة التي تحملها الحياة في باطنها، وقد أقر برغسون بدور التكيف مع ظروف البيئة الخارجية، يقول :"من البداهة بما كان أن النوع إذا لم يخضع لشروط الوجود التي أعدت له اضمحل وتلاشى، ولكن شتان بين الاعتراف بأن الظروف الخارجية قوى ينبغي للتطور ،حسب لها حسابا، وبين القول أن هذه الظروف علل موجهة للتطور"[11]هورفض للرأي الذي أخد به الاتجاه الألي، وهو رأي لا يتفق مع فرضية الاندفاعية الأصلية. ويصرح برغسون في كتابه " التطور المبدع" :" لقد قلنا أن الحياة ابتدأ من أصولها الأولى ليست سوى استمرار الاندفاعة بين خطوط متباعدة من التطور، لقد كبرت فيها أشياء ونمت فيها أشياء بفعل سلسلة من الزيادات والإضافات التي كانت هي الأخرى مشتملة على أنماط مختلفة من الإبداع"[12]

---

[8]- إ. م.بوشنسكي، الفلسفة المعاصرة في أوروبا،تر:عزت قرني، المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1992، (ب ط) ص 149.

[9]- هنري برغسون، الطاقة الروحية، تر: علي مقلد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1991، ط1، ص 19.

[10]-عبد الرحمن بدوي، مرجع سابق، ص 336

[11]-التطور المبدع، مصدر سابق، ص 96.

[12]- المصدر نفسه، ص 53.

العقل والحدس: أية علاقة؟

يميز برغسون بين وظيفتي العقلوالحدس، فالأول وظيفته التحليل والتركيب ولكنه عاجز عن إدراك الديمومة والوجود الحيوي الذي يطلع الحدس بالكشف عن جوهره "تمييز برغسون بين العقل كوسيلة لإدراك الأجسام المادية والوقائع المحسوسة، وبين الحدس كوسيلة باطنية للإدراك المباشر لكل ما هو كيفي وزمني...مجال المادة المتحيزة الجامدة، وهذه وسيلة إدراكها العقل، ومجال الحياة المعنوية الواعية ذات الدوام المتجدد والتي يتم إدراكاها بالحدس"[13]يقسم الوجود إلى مجالين: على هذا الأساس موضوع العقل المادة، أما الحدس فموضوعه المتحرك، ما يعني أن الحدس وحده هو الذي يدرك الديمومة. ومادامت الحياة أوجدت العقل في شروط معينة ليؤثر في أمور محددة، إذن فهو لا يستطيع أن يحيط بالحياة لأنه ليس سوى مظهر واحد من مظاهرها.ومقابل ذلك يبقى ارتباطه قويا بالمادة، كما أنه لا يمكن فصل الشيء عن أصله، كذلك لا يمكن فصل العقل عن المادة، فهل يعقل أن نعزل البياض عن الثلج؟ إذن الجواب بالنفي، يثبت مرة أخرى أن الفصل بين العقل والمادة أمر غير ممكن.

"العقل قادر على أن يحلل كل نظام إلى قوانينه ثم يعيد تركيبها من جديد، ويتميز العقل بالوضوح وبالقدرة على التمييز بين الأشياء، وفي نفس الوقت، فإن العقل يختص أيضا بعدم القدرة بالطبيعة على فهم الديمومة الحقة، وهي الحياة."[14]العقل وظيفته التحليل والتفكيك من أجل العمل، وليس إدراك الديمومة، وهنا يتضح الطابع العملي النفعي للعقل اتجاه الحياة.

كما ميز برغسون بين العقل والغريزة معتبرا "الغريزة هي العلم الفطري بالشيء أما العقل فهو ملكة صنع الأدوات الصناعية، وإذا كانت الأدوات الصناعية، وإذا كانت الطبيعة تقلع، بهذا العقل، عن تزويد الكائن الحي بالأداة النافعة فمرد ذلك إلى أنها تريد أن تجعله قادرا على تنويع صناعته بحسب الظروف"[15]

تجليات فكرة الحدس البرغسوني على الطب

لقد انعكس التصور الفلسفي لفكرة الحدسعلى الطب"ولا شك أنه لا غنى للطب عن التحليل، غير أن ذلك لا يعني إنكار الحدس الطبي، ذلك أن الحكم بأن نجاح الطبيب إنما يقاس بعدد مرضاه ليست إشاعة يطلقها المتمرسون غير العلماء من الأطباء إنما هو حكم المتعاملين معهم من المرضى، ذلك أن استعادة الصحة هي الغاية التي يسعى إليها المريض"[16]لعل هذا التصور يبرر أهمية النظرية الحدسية في الأخلاق كمرجعية فلسفية ترى في الحدس المعيار الحقيقي للقيم الأخلاقية، بفضله ندرك الفضائل والرذائل، كانت ضمن جملة من النظريات الأخلاقية

---

[13]- سماح رافع محمد، المذاهب الفلسفية المعاصرة، مكتبة مدبولي، مصر، 1973، ط1،ص 71.

[14]- الفلسفة المعاصرة في أوروبا، مرجع سابق، 146.

[15]- التطور المبدع، ص 138.

[16]- أحمد محمود صبحي، ومحمود فهمي زيدان، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1993، ص 23.

(الأخلاق الكانطية، أخلاق المنفعة. الخ) اعتمدتها البيوإتيقا كفكر أخلاقي جديد في نشأتها، لأن النظرة الحدسية تنظر إلى الأحكام الخلقية الكلاسيكية بنظرة تقبل التصحيح وإعادة النظر فيها بما يحقق مصلحة الجماعة وخيرها، وهي النظرة الكونية التي تنشدها "البيوإتيقا".

ويعتبر برغسون " الفرق بين بين التحليل والحدس كالفرق بين الاستماع إلى قصة تروى- حيث انفصال المستمع عن وقائعها- وبين معايشة أحداثها، أو هو كالفرق بين صور مختلفة تراها لمدينة ما وبين الحياة في أرجائها"[17]دعوة برغسون العلماء إلى عدم الاقتصار على منهج التحليل، كونه يرجع المركب إلى ما هو أبسط منه، وبالتالي يبقى ما يحققه من معرفة قاصر، لذلك لابد من الاعتماد على الحدس للولوج إلى باطن الموضوع

" على العلماء ألا يقتصروا على منهج التحليل حيث التجزئة والتفتيت وإنما أن يستكملوه بنظرة حدسية تستحوذ على الموضوع في كليته وتنفذ إلى باطنه ببصيرة نافذة، وهي دعوة كررها كثيرون أذكر منهم بصدد الطب جورج سارتون الذي دعا إلى إحياء الروح الأبقراطية بنظرتها الكلية الشمولية إلى المريض" [18] هذه الدعوة إلى اعتمادالنظرة الحدسية في التعامل مع المريض إنما تدل بوضوح على دور الجانب الروحي في الشفاء، وهو الجانب الذي أغفله المذهب المادي.

الأخلاق في ميزان فلسفة الحياة البرغسونية

يؤسس برغسون مذهبه في الأخلاق على الحرية الإنسانية،حيث يميز بين نوعين من الأخلاق، أخلاق ساكنة منغلقة، وأخلاق متحركة منفتحة. أما الأخلاق المنغلقة مبدأها الإلزام الأخلاقي، هي نوع من الإكراه الذي يمليه المجتمع، فهي أخلاق تلزم وتوجب، وتشمل العادات التي تفرضها الجماعة،"الإلزام هو من الضرورة بمثابة العادة من الطبيعة"[19]والواجبات التي تفرضها الحياة الاجتماعية تهدف إلى ترسيخ الترابط الاجتماعي، وهذا النوع من الأخلاق نابع عن الضرورة الاجتماعية.

يميز برغسون في هذا السياق بينالعلاقات التي تجمع أفراد خلية النحل غريزية أما العلاقات الإنسانية في ظل المجتمع تقوم على العادات الأخلاقية، "ما يميز المجتمع المغلق، وهو المقدّر لنا بالطبيعة، هو أنه في كل لحظة يشمل عددا معينا من الأفراد، ويستبعد الأخرين، والغريزة الاجتماعية، وهي أساس الالتزام الاجتماعي، تستهدف دائما مجتمعا مغلقا، مهما يكن اتساعه:الأمة، الوطن، الخ، ولا تستهدف أبدا الإنسانية في مجموعها"[20]

---

[17]-المرجع نفسه، ص 24.

[18]-المرجع نفسه، ص 24.

[19]- هنري برغسون، منبعا الأخلاق والدين، تر: سامي الدروبي وعبدالله عبد الدائم،الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر،1971،(ب ط)، ص 19.

[20]- عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، مرجع سابق، ص 338.

أما الأخلاق المنفتحة منبعها الحياة تتعدى حدود الجماعة وتتجاوز كل القيود " تجسدت هذه الأخلاق في شخصيات ممتازة كانت في كل الأزمان، فقد عرفت الإنسانية قبل أن تعرف القديسين أهل المسيحية، حكماء اليونان، وأنبياء بني إسرائيل، وأبطال البوذية وغيرهم، وبهم كان الناس يقتدون حتى ينالوا هذا التخلق الكامل الذي يحسن أن يسمى بالتخلق المطلق"[21] تمظهرت هذه الأخلاق في شخصيات هؤلاء الصفوة ، أخلاق نداء روحاني تمثل الكمال الإنساني لذلك يرغب فيها أفراد، ويعتبرونها النموذج والمثال لأنها أخلاق صاعدة للحب الإنساني، هدفها الأساس محبة الإنسانية جمعاء، لأنها وضعت واجبات الإنسان نحو الأخرين.

فلسفة الدين

كما قسم الأخلاق إلى قسمين: أخلاق مفتوحةوأخلاق مغلقة، يقسم الدين أيضا إلى دين مغلق ساكن ودين مفتوح ديناميكي، فالأول بمثابة استجابة دفاعية ضد الطبيعة، ما يعني أن حاجة الإنسان هي التي فرضته يصل بين الفرد والمجتمع عن طريق الخرافات والأساطير التي ينسجها العقل.

أما الدين المفتوح فهو دين مفارق للطبيعة يتجسد في التصوف"الدين الحق يولد مع اتصال وتطابق جزئي مع المجهود الخالق للحياة، مع السورة الحيوية أو التطور الخالق، ومعنى هذا أن الدين الديناميكي يستمد أصوله من التصوف الذي يؤمن للنفس، على شكل ممتاز، وهذا الجهد الخلاق يأتي من الله"[22] ربط الدين المفتوح بالتصوف كتجربة ذوقية يستمد فيها المتصوفة عرفانهم من الإله والحديث هنا عن التصوف الكامل كما هو الحال في الدين المسيحي، الذي يعتبره نموذج التسامح والمحبة، والإخاء لا الحديث عن التصوف بمفهومه اليوناني القائم على العقل،لأن هذ الأخير أن يقيم اخلاقا أو دينا في هذا المستوىالمتعالي، الذي لا يخضع لسلطة المجتمع، ولا إلى إلزاماته. في هذا السياق يختلف تصور برغسون لفكرة "الإله" عن التصور الفلسفي القائل بالثبات. حيث تمتد الديمومة لتشمل أبدية الإله.

خاتمة

كان ميلاد المشروع البرغسوني في ظل واقع مادي، كاد أن يفقد الفرد فيه كيانه الروح، بمثابة طوق نجاة يستعيد من خلاله الإنسان إنسانيته — ففي هذه المرحلة بالذات– هو أحوج ما يكون فيه إلى فكر روحي، جسدته التجربة الفلسفية لبرغسون، بهدف تحرير الإنسان عن طريق الإبداع والخلق. وإنقاذ القيم الروحية التي أطاحت بها الاتجاهات المادية، فأحّل بذلك مفاهيم حيوية جديدة كالروح، الحدس والديمومة والخلق، محّل المفاهيم المادية التي طالما تغنى بها أصحاب التيار المادي كالحتمية، المادة، الألية وغيرها من المفاهيم.انتهى برغسون وهو يحمل معه

21– هنري برغسون، منبعا الأخلاق والدين، مصدر سابق، ص 40

22– عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة،مرجع سابق، ص 339.

صورة بطل من أولئك الأبطال الذين أشاد بهم، الذين يحملون معهم محبة الإنسانية ويدافعون عن إيمانهم بالروح، وبقيت فلسفة الحياة، فلسفة متجددة اصطبغت بصبغة عملية مع التيار البرغماتي.ما يدل على الروح المتجددة لفلسفته داخل الفكر المعاصر.